العرب
الأحد 2021/08/29
السنة 44 العدد 12163

# السلطة الخامسة بديل عن السلطة الرابعة

خولة قريبي

ينتهي القول الإعلامي البارز في السلوك الاتصالي إلى مقولة "ماذا يفعل الجمهور بوسائل الإعلام"؟ عوض المفهوم السابق لفعل التلقي السلبي الذي كان "ماذا تفعل وسائل الإعلام بالجمهور"؟ ففعل التلقي الإلزامي الذي فرضته علينا التكنولوجيا وكذلك نشاط الوسائط الجديدة، أرغم العديد على التعامل مع الوسيلة الإعلامية كأداة تواصلية تتيح التوافق والانسجام الفكري. فقانون العرض والطلب أصبح متاحا في اقتصاديات التقنية ولا يوجد بذلك استخدام دون إشباع ذاتي محتم.

**التفاعل من أرقى خصائص الفضاء الرقمي إذ يستطيع أن يكون المستخدم هو الناقل للمعلومة والمستقبل في آن واحد**

اشتهر غوستاف لوبان (مؤرخ وطبيب فرنسي) بكتابه سيكولوجيا الجماهير الذي يعنى بأحوال النفسية والاجتماعية محاولا معالجتها بطرحها في مجالها التفاعلي عبر مختلف وسائل التواصل. عالج طبيعة الحضارات مستنبطا منها طريقة العيش، والأنثروبولوجيا الحياتية داخل المجتمعات والقبائل المختلفة، وسلط الضوء على مفهوم روح الجماعة وأهمل بذلك التعامل الفردي إذ أنه منطلق بدائي لاهوتي فهو على عكس الجماعة التي تسير ككتلة واحدة وراء ما هو وجداني وعاطفي دون اللجوء إلى الأدلة والبراهين التي تشغل العقل البشري كوحدة منفكة عن الجماعة.

وحسب لوبان فإن المجتمعات الإنسانية عويصة التركيب ولا تخرج عن كونها كلا مترابطا في الفكر واللغة والهدف، فلا شأن لجماعة بجماعة أخرى إلا إذا كان هناك تذاوت بينهما، فمن هذا يعتبر جمهور وسائل الإعلام مجموعة عددية من الأشخاص الذين يخضعون لوسائل الإعلام المختلفة، حيث ظهر بظهور الطباعة مع غوتنبرغ تحديدا في القرن الخامس عشر، وبظهورها انتشر مصطلح الصحافة الشعبية التي مكنت كل الطبقات الاجتماعية بأن تكون متساوية في درجة تلقي المعلومة وبهذا تحقيق فكرة إشباع الرغبات والحاجيات النفسية من خلال ما تتناوله الجرائد في الصحافة المكتوبة.

وشيئا فشيئا بدا الإعلام يأخذ حيزا أوسع من خلال الإذاعة التي التمّ حولها جمهور المستمعين، والتلفزيون الذي اعتبر من بين الاختراعات التي أذهلت البشر وحيّرت العلماء في وقت من الأوقات، ومع هذا التطور بدأت درجة تلقي المعلومة تأخذ منحى آخر ومفهوم الجمهور يستمد قوته من نفسه النشطة ليواكب المستجدات الوسائطية، وأصبح يطلق عليه بالمستخدم حيث يستثنى على نفسه التحيز في الوسيلة وغيرها من المميزات، إذ هو موجود في كل زمان ومكان (يستطيع الوجود في كل زمان ومكان ولا يحده على ذلك إلا التقنية).

كما أن اللامادية هي من أهم ميزاته والتي تعني دراسة سلوك الفرد دون الاحتكاك به لأنه موجود ضمن عالم افتراضي غير محدد الهوية، وهنا ننفي ما جاء به لوبان عندما حاول فهم قابلية الجماعة للتأثير والتصديق عندما قال "وكيفما ظهرت على الجماعات شارات الهدوء والسكون فإنها على الدوام في حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلا."

فها هنا نرى أن دراسة الجمهور عبر الفضاء السيبيري الذي يصفه العديد من الباحثين بالجملة العصبية للمجتمع، يختلف تماما عمّا كان عليه سابقا من مصداقية في دراسة المتلقي ووصف ملامحه الدقيقة وفتح تساؤلات معه وفق شكله الحركي، وفي دراسة للدكتور عبدالله الزين الحيدري، قدم فيها جل التفاصيل التي تميز الميديا الاجتماعية الجديدة حيث أسماها بالسلطة الخامسة عوض السلطة الرابعة التي تعتبر المنشأ الأول للإعلام والبوابة الأولى في الصناعة الإعلامية.

حيث استرسل الحيدري في تقديم أدق تفاصيل هذا الفضاء، كما قدم جملة من الأدوات والتقنيات التي يستخدمها منها الأدوات البلاغية المتشكلة من الصور واللغة التي تتميز بها حيث تعتبر وجبة جاهزة مقدمة للجمهور المتفاعل تتناغم وأفكاره ودرجة استنطاقه للثقافة التي تعبر عنه. فالذرات المنفصلة تتصل هنا بجماعات وفق درجة الاستيعاب ووفق المصالح المحققة.

وعليه فإن التفاعل هنا هو من أرقى خصائص هذا الفضاء إذ يستطيع أن يكون المستخدم هو الناقل للمعلومة والمستقبل في آن واحد، فهو يمارس عدة نشاطات كالتعليق وإعادة النشر والتعليق من جديد على المحتويات المختارة.

وهكذا تعدّدت التفاعلات مما دفع بالباحثين لتقسيمها إلى: التفاعل الرجعي الذي يسعى لاستعراض المحتويات، والتفاعل العملي الذي يسعى لتغيير المحتوى إضافة إلى الاستعراض، أما التفاعل المتبادل فيسعى هو الآخر إلى إضافة محتويات جديدة حسب المستخدم.

والجدير بالذكر أن البيئة الرقمية الجديدة قدمت العديد من المحتويات على أساس الأدوار التي يقوم بها المجتمع والفرد على حد سواء، فهي بيئة حاضنة لكل المواضيع والتابوهات بكل أشكالها، زيادة على ذلك تعتبر متنفسا رحبا لجل الأطياف من أطفال ونساء وحتى كهول، فلا ينبغي علينا نكران حسنات التطور التكنولوجي كما لا ينبغي علينا استهلاكه في التحريض والمشاحنة. فالفعل الاجتماعي الذي نقوم به من خلاله هو نقل المعلومة للجمهور بكل صدق وشفافية بعيدا عن التغليب والمغالطة.

وأحيانا لا بد أن ننتبه إلى أن ضخامة المعلومات المقدمة عبر الوسائط المتنوعة لا تعني أنها حققت إشباعا لجميع الناس، فالآراء عبر هذه الوسائط تختلف بين الرفض والمعارضة وذلك باللجوء إلى البحث فيما يشبع حاجاتها وبين القبول والتأييد في حال وصولها إلى الإشباع.

غير أن وسائل الإعلام التقليدية ليس لديها الحق في الرفض ففي هذه الحالة تبتعد عن الاستخدام وهو المصطلح الذي يوحي دائما إلى الوسيلة الإعلامية الجديدة بتفاعلاتها وأدواتها، فمن هنا تتضح لنا القوة الحقيقية التي تعنى بها الوسائط الجديدة في عملية التفاعل وأخذ الأمور بموضوعية وخلق روح التشاور والتشارك في المواضيع في سياق أو فضاء أو بيئة تفاعلية.

ومما تقدم نستخلص بأن العصر الحالي ضمن القرن الحادي والعشرين، يشهد العديد من التغيرات على جميع الأصعدة وفي جلّ المجالات الحياتية، سواء تعلق الأمر بالاستخدام الإنساني للأشياء أو بالتنوع الفكري في عرض النظريات الجديدة التي تعمل على زرع تنافس معرفي يجرّ كل واحد منهما الآخر كما تهدف إلى ترابط منطقي وموضوعي وتفسير لظواهر اجتماعية أو ثقافية أو إعلامية، إذ تعد هذه الأخيرة من بين الحقائق العلمية التي يعمل الباحثون والأكاديميون على فهم تحدياتها الراهنة وإخضاع العملية الإعلامية والاتصالية للدراسة والاستكشاف المعرفي.

الجماهير الجديدة لا تحتاج إعلاما قديما (عمل للفنان عمر فهد)

# هل مازلنا نتعلم من سقراط؟

حمزة الذهبي
كاتب مغربي

الفكر المخالف لما هو سائد محكوم عليه، تلقائيا، بالإقصاء والتهميش، بل وأكثر من ذلك، بالتعذيب والقتل، أي بما هو أبشع وأشنع، إذ لو تأملنا التاريخ لوجدناه مليئا حد الثمالة بنماذج من هؤلاء الذين تعرضوا للتعذيب والقتل، وذلك فقط لأنهم تجرّؤوا على النظر في اتجاه آخر غير الاتجاه الذي ينظر إليه الجميع.

إن عملية رؤية الأمور عكس ما يراه الجميع، عملية ارتداء نظارات مختلفة عن النظارات التي ترتديها الجماعة، حوّلتهم إلى شياطين. لهذا عملت الجماعة، التي لا تحب أن ترى رأيا آخر مخالفا لرأيها، على التخلص منهم.

ومن بين هؤلاء، الذين يمتلئ بهم التاريخ، أختار الحديث في هذا المقال عن سقراط الذي لم يكتب شيئا، لكن عمله الفلسفي العظيم، لم يكن سوى حياته وموته. أما سبب اختياري له ومبرره دون الجميع فيرجع إلى إيماني بأنه يمكننا التعلم والاستفادة منه.

سقراط، فيلسوف يوناني، ولد قبل ميلاد المسيح بما يقارب الخمسمئة سنة، استوحى سقراط فلسفته، مثلما ادعى أرسطو، من الشعار المنقوش على معبد أبولو في دلفي "اعرف نفسك". في حين أن هناك من يرى أن فلسفته هي نتاج صوت داخلي سمعه سقراط وأملى عليه أن يوقف ما يفعله ويغيّر سلوكه. ونتيجة سماعه لهذا الصوت أضحى يتصرف على نحو مختلف، يتجاهل العادات، وما اجتمع عليه الناس، وينشغل بتعلم كيفية عيش أفضل حياة يمكن تصوّرها.

ومهما كان مصدر تفلسفه، فقد تميز سقراط بشيئين الأول من حيث المظهر الخارجي، حيث أنه كان يعتبر قبيحا وفقا لمعايير اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، قلت وفقا لمعايير اليونان، إذ كما تعلمون القبح ليس ثابتا، بل هو متغير بتغير الزمان والمكان، بمعنى أنه يبنى اجتماعيا، وما يكون قبيحا في زمن أو مكان ما يمكن أن يكون غير ذلك في زمن أو مكان آخر.

والثاني بأسلوبه الفريد في التفلسف والذي يسمى "فن التوليد"، أي أنه كان يستخرج الأفكار من محاوريه، لا يعطيهم شيئا من عنده/ يساعدهم على استخراج ما سيعرفونه انطلاقا من أنفسهم بأنفسهم. يقول عن ذلك في محاورة تيتياتورس "إنني مثل القابلة، لا ألد الحكمة، لأنه لا حكمة عندي، إن مهمتي هي مساعدة الآخرين على الإنجاب". ويضيف "ليس عندي أي نوع من الحكمة، وإنما كل صناعتي هي توليد الأفكار من الرجال، إن أسئلتي ساعدت الناس الذين أجادلهم – رغم أنهم لم يستفيدوا مني شيئًا – أن يكتشفوا بأنفسهم كثيرا من الحقائق الرائعة التي تولدت منهم واستخلصت من أنفسهم وأعماقهم".

عدم ادعائه الحكمة والمعرفة، وتوقيفه للناس في الأماكن العامة، وجعلهم يدركون، عبر أسئلته المزعجة، مدى محدودية ما يعرفونه، خلق له العديد من الأتباع، الذين اعتبروه الرجل الأكثر حكمة على قيد الحياة. بيد أنه خلق له أيضًا أعداء ضربوه، واحتقروه وسخروا منه. ووصل بهم الأمر إلى محاكمته. إذ أنه وهو في سن السبعين اتهم من قبل مواطني أثينا بتهمة الإلحاد – عدم الإيمان بآلهة المدينة – وإفساد عقول الشباب. لقد خرّب، حسب قولهم، عقول الشباب وجعلهم ينحرفون عن الطريق القويم، وطالبوا انطلاقا من ذلك بإعدامه.

في المحاكمة تصرف سقراط بشجاعة وخاطب المحكمة بجرأة قل نظيرها "طالما أنني أتنفس وأملك القوة، لن أتوقف عن ممارسة الفلسفة وإسداء النصح لكم وتوضيح الحقيقة لكل من أصادفه.. وبذلك أيها السادة.. سواء برأتموني أم لا. أنتم مدركون أنني لن أغير سلوكي حتى لو مت مئة مرة".

**الدروس المستفادة من سقراط كثيرة ولعل أبرزها أنه يدفعنا إلى وضع ما نعرفه ونؤمن بصحته موضع فحص**

ولأنه لم يتراجع عن قناعاته ومعتقداته، فقد انتهت المحكمة بالحكم عليه بالموت "لم يزعج الحكم سقراط بالمرة، بل ذهب بهدوء إلى سجنه"، في السجن حاول بعض تلامذته تهريبه، لكنه رفض ذلك رفضا قاطعا، ومات موت الشجعان، ليصبح بعد موته مبجلا أكثر مما كان عليه وهو على قيد الحياة. إن استعداده للموت بدلا من التخلي عن معتقداته ضمن له الخلود، إذ لو هرب أو تراجع عن أفكاره لما ضمن له هذا أي شيء. "وبعد خمسة قرون كتب المؤلف الروماني ماركوس فابيوس دفنتيليانوس: باستغنائه عن السنوات القليلة الباقية له كسب خلودا عبر القرون".

هكذا انتهت حياة سقراط، الذي نجح في مهمته المتمثلة في "توعية الناس بنقص معرفتهم"، مضايقا محاوريه مثل الذبابة بأسئلته المزعجة، لكنّ مأساة الفلاسفة والمفكّرين والعلماء لم تنته عنده، فقد أدين أرسطو أيضًا، لهذا اضطر للهرب وقال إنه هرب كي لا يرتكب الأثينيون جريمة ثانية في حق الفلسفة، في إشارة إلى جريمتهم الأولى في حق سقراط.

وبعد مرور المئات من السنين صلب الحلاج، ونفي ابن رشد، وأحرقوا برونو الذي أكد نظرية كوبرنيكوس القائلة بأن الأرض ليست هي مركز الكون، وحاولوا قتل الفيلسوف إسبينوزا بطعنة خنجر. وهو الخنجر نفسه الذي انغرس في رقبة نجيب محفوظ.

قلت في التقديم إنني أؤمن بأنه يمكننا التعلم من سقراط والاستفادة منه. لهذا أرى من المفيد أن أتحدث عن ذلك، ولو بشكل مختصر ومقتضب: إن الدروس المستفادة من سقراط كثيرة ولعل أبرزها أنه أولًا يدفعنا إلى وضع ما نعرفه ونؤمن بصحته موضع فحص وتمحيص. سقراط ينزع عنا الثقة، ويخلق لنا نوعا من القلق ويضع أمامنا إمكانية أن يكون ما نؤمن به خاطئ، وهذا الأمر نحن في الغالب، لا نفكر فيه ولا يخطر على بالنا، نعيش حياتنا مطمئنين إلى صحة ما نعتقد وذلك فقط لأن الأغلبية تعتقد نفس ما نعتقد. وثانيا يعلمنا أن نتجاوز جبننا، وأن نتحلى بالجرأة والشجاعة.

كيف ذلك؟

لنفترض أننا اكتشفنا تهافت ما نعتقد وتضعضعه، بعد إخضاعه للمساءلة. غالبًا ما سنخاف من التصريح بهذا الأمر بشكل علني خوفا من رد فعل الأغلبية، لكن سقراط لن يفعل ذلك، سيختار المواجهة بدل الاختباء وحتى عندما سيكون في ذلك هلاكه، لن يتراجع ولن يطأطئ رأسه مُذعنًا.

ص10 تنشر كاملة على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

سقراط ينزع عنا الثقة